عائلة طويبا البارّ نموذج ومثال وقدوة

الأب أيوب شهوان

أستاذ مادة الكتاب المقدس

جامعة الروح القدس، الكسليك

منتىق الرابطة الكتابية في الشرق الأوسط

مقدمة

لدى قراءة سفر طويبا، تمرّ أمام ناظريك لوحات متنوّعة، وكأنك أمام كلّ غنى الله الذي أفاضه على الإنسان، من بركات، وخيرات، ومعرفة، وحكمة، من حبّ للصلاة والعبادة، وغير ذلك ممّا يبدعه المخلوق على صورة الله ومثاله. من خلال تعدّد الأنواع الأدبية والموضوعات التي يزخر بها سفر طويبا، هناك تعليم وحكمة وإرشاد، والهدف هو أبداً فلذة الكبد، هو المؤمن الناشئ الذي ما زال غير مدرك، كما الجاهل الذي لا يعرف. الخبر في السفر يضحى وسيلة لاكتشاف ما يريد الله وما يعلمه، والأحداث فيه حافز للتفكير والتعمق والاتعاظ، يتمرّس القارئ انطلاقاً منها على فهم ما حصل وما هو حاصل، وعلى تبين مخطط الله الخبير والخالصي. عائلة طويبا في هذا الإطار هي هكذا مكان تجلّي المخطّط المذكور، تمثيلاً لنا وللأجيال المتعاقبة من القارئ المؤمنين، فتختصر بالتالي في حياتها عائلة شعب الله الكبرى. يستوحى سفر طويبا أسفار الكتاب المقدس ليعطي تعليمه لأبناء شعبه، فتتبدى من خلاله صورة العائلة التي تتقياً في ظلال العليّ وتعيش برضاه. نتبين ذلك ممّا يلي:

١ - عائلة تتزيّن بالحكمة

عائلة طويبا وساره هي أيقونة ببليّة حكمية ملفتة، نتبين من خلالها قصّة عائلة في مولدها وفي نُضجها، عائلة مُدرّجة في قصّة سلالات، هي بدورها في أساس سلالة جديدة، اتّصفت بما أغدقه الله عليها من فطنة ومعرفة وفهم؛ فطويبا الزوج لا يخضع لحماقة فاهت بها امرأته، كما فعل من قبل أيوب الذي وصف كلام زوجته بأنه "كلام إحدى الحمقاوات"؛ وطويبا الأب يوجّه ابنه ويرشده ليحسن السير على دروب الحياة، فإذا العائلة منوّرة الحُطى، وسالكة في مسالك تضمن لها بلوغ السعادتين، الأرضية والغلبا.

٢ - روحانية زوجية وعائلية

تشكّل قصّة طويبا وساره طريقاً لروحانية زوجية وعائلية، ابتدأت في بيت، ومائدتين، وثلاث خبزات، لتبلغ بعد ذلك الكثير من البيوت:

- هو "بيت بُني على الصخرة"، إذ لدينا أمامنا ناظرينا عائلتان، طوييط وحنة، من جهة، وطوييا وساره، من جهة أخرى، مقتنعان في العمق أنه، "إن لم يبن الرب البيت، فعبثاً يتعب البنائون" (مز ١٢٧)، وهذا ما جعل من الاثنتين عائلتين بنائتين ومثاليّتين.

- وفي هذا البيت هناك مائدتان، مائدة الخبز اليومي، ومائدة الكلمة التي لا تزول؛ فالعائلتان، بالإضافة إلى أهما تغتديان من مائدة الخبز الذي تحصّله بعرق الجبين، ولكن من جود الله، تغتديان أيضاً من الوليمة الروحية، مائدة الكلمة، التي تُنمي في المعرفة والحق والمحبة. لذلك تتحوّل قصتهما إلى كلمة ملهمة ومُلهمة، كلمة وحي وكلمة حياة.

- أما الخبزات الثلاث فهي خبز الشكران، وخبز الفقراء، وخبز المحبة؛ ففي بيت طوييا يرتفع الحمد والشكران للواهب بلا حدود، لكثرة ما يتوقّر فيه من خبز العناية الإلهية، الأمر الذي جعل من طوييا الأب صورة حيّة عن أبوة الله الذي يحنو على الفقير واليتيم والأرملة والغريب، ودفعه إلى الاهتمام بأن يمدّ الفقراء بالخبز المحيي. إنّه خبز المحبة الذي، وبفعل الروح، عاشته العائلتان كعطية للذات، كمحبة سخية، وكفعل شكران لا ينقطع.

٣ - عائلة قداسة

إن سفر طوييا، ومن خلال الأحداث التي يورد، يجعل قداسة العائلة محورية ومركزية، كاشفاً أنّ الزواج الذي يباركه الله هو مكان تجسّد القداسة، وبالطبع بداية خلاص من الشرّ، ولقاء حميم بالقدوس. وكما في البدء سببت حواء، ومن بعدها آدم، الشرّ في العالم، هكذا يبدأ الرجل والمرأة، في اتحادهما الذي يباركه الله، تكريساً جديداً لكلّ الخليقة بالقداسة. من هنا الأهمية التي اكتسبها في الوحي الإلهي موضوع الزواج، مع تأكيدنا على أنّ الزواج هو العلامة الأكثر شفافية لوحدة الإنسان مع الله، وهذا ما يتجلّى في عائلة طوييا.

يبين سفر طوييا قداسة العائلة، قداسة العروسين الشابّين، طوييا وساره، وقداسة ذويهما. تشهد الأحداث أنّ طوييا وساره كعروسين، يُدرجان في تاريخ خلاص عائلتي المنشأ: في عائلته هو، وفي عائلة الزوجة.

٤ - عائلة يمتحنها الألم

هاتان العائلتان، مع كونهما أمينتين للرب ولشريعته، وتبدلان الكثير في سبيل الإخوة من شعبهما، لم تتجّوا من امتحان الألم الجسدي كما المعنوي.

فطوييا الأب اضْطُهِدَ، وسُيِّ بسبب أعمال الرحمة تجاه إخوته في الإيمان، وفي الوقت عينه تدوّق فرح العودة إلى البيت، مع الزوجة والابن. ولكن، تحديداً بعد القيام بفعل محبة، حدّث له أن أصبح أعمى، وتبع ذلك الوقوع في ضيق اقتصادي. إلى هذه المحنة المتشعبة، أضفّ وجعاً آخر معنوياً سببته ردة فعل الزوجة، التي شعرت بالمساءة وبالقهر بسبب موقف زوجها، فوبّخته على أمانته الدينية المتصلبة، معتبرة إيّاها سبب

المصاب الذي حلّ بهما. لكنّ ألم طويّيا، وهو الذي لم يتزحزح يوماً قيدَ أُمَّلَةٍ عن إيمانه الراسخ، لم يَحُلْ دونَ استجماع قواه وتوبيخ شريكه حياته التي، لولا حزنُه وحسُّهُ للأمر، لَصارتُ شريكَةَ الكَفَّارِ والحمقى.

كذلك **امْتَحَنَتِ عَائِلَةُ سَارِهِ** الامتحان المومج بوفاة كلِّ مَنْ كان يقترن بها بُعيد الزواج.

لكنّ هذه الأحداث المؤلمة كلّها، وأوقات الامتحان التي لم تكن نادرة، عاشتها العائلتان بثقة بالله، وسيكون يومٌ تتحوّل فيه بالتأكيد إلى مجد.

٥ - عائلة قدوة في الرجاء

عائلة طويّيا هي صورة متكاملة عن الحياة اليوميّة، حيث نشهد المجريات العائليّة، والأحداث الوطنيّة، والصعوبات المضنية، والآلام المبرّحة، والمآسي التي قد تحلّ بهذه أو تلك من العائلات، وصولاً إلى أقساها، كالنفى والإبعاد عن الأرض والبيت والأحبّة، ثمّ العودة إلى الوطن، وكابتعاد الابن عن أبيه، ثمّ عودته إليه، والتثامُ الشمل من جديد، وكالسفَرِ للزواج، والاستعداد للزفاف وحصول ذلك، وكالمرض ثمّ الشفاء، وكالبؤس ثمّ البحيوحة، الخ. من كلّ ذلك يتعلّم المؤمن أنّ طريق الرجاء هي الخيارُ الأفضل، لأنّه يشيل الممتحنَ من الضيق، ويحمله على أجنحة الأمل والثقة بخلاص يأتي.

هكذا عجائب الله التي يجربنا عنها السفر، هي دَفْعٌ غير عاديّ باتجاه الرجاء المعطى من العلاء؛ فبينما كان طويّيا يقاسي الأمرين في الأرض الغريبة، وفي حين كانت ظلمة عينيه مَمْتَحِنُ رجاءه الذي لم يتزعزع، إذا بيَدِ القدير تردّ إليه البصر، هو الذي حافظ على المستوى الأعلى في البصيرة، فعادت إليه سعادتُه بعد أن ردّ رفائيلُ الملاكُ البصرَ إليه، كما عادت أيضاً إلى ساره زوجته، بعد أن خلّصها رافائيل من الشيطان. هكذا جعلاً من عائلتهما عائلةً صلاةً وتضرّعٍ وعبادة، فكان انتهاء الشقاء الخاصّ صورةً مسبقةً عن انتهاء شقاء شعبِ الله ومدينته أورشليم.

٦ - عائلة بفضل الله

يتدخّل الله في حياة طويّيا وابنه، هو القدير وحده، الذي يعتني بأبناء شعبه الذين في الضيق؛ فكما أنقذ طويّيا من العمى، كذلك أنقذ ساره ممّا كان يحلّ بها بعد كلّ زواج، فتذوّقت بعد ذلك السعادة المعطاة من العلى، وكأثما عجزت في كلّ الزوجات السابقة لتنجح في الزواج من طويّيا ابنِ عشيرتها دون سواه.

ويبدو لنا هنا أنّ ما أصاب طويّيا وكأنّه ضمنَ تصميمِ الله، وذلك لكي يرسل ابنه إلى راجيس، ولو لم يفعلْ لَمّا تعرّف هناك إلى ساره. لقد تدخّل الله في حياة طويّيا، كما قبلاً عندما التقى أليعازرُ خادمُ إبراهيم رفقةً على بئرِ الماء (تك ٢٤ : ١٧ ي)، ويعقوبُ عندما التقى راحيل (تك ٢٩ : ٩ ي)، فأرسل ملاكَه ليفكّ ساره من قيود الشيطان، ويشفي طويّيا من عماه.

٧ - عائلة يضربها الشيطان

مقابل الملاك رفائيل ودوره الحَيِّر، نجد في سفر طوبيا الشيطان (طو ٨: ٣)، تحت اسم "أزموداوس" (٣: ٨)، يُجِلُّ الشرَّ بالناس؛ إنَّه الروح الشرير الذي دفع حواءَ ثمَّ آدمَ إلى ارتكاب المعصية (تك ٣: ١)؛ هو الذي أغوى آحاب، فصعد إلى راموت جلعاد ومات هناك (١ مل ٢٢: ٢١)؛ هو الذي ضرب أيوب بالويلات ليدفعه إلى التجديف على الربِّ؛ وهو الذي غرَّر بداود ليُجرِيَ إحصاءَ لبني إسرائيل (١ أخ ٢١: ١ي)؛ رج ٢ صم ٢٤: ١ي).

نتبيّن من هذه الوقائع أنّ دور الشيطان هو إنزال الأذى بالناس، على عكس دور ملاك الله رفائيل، مع الإشارة إلى أنّه لا يستطيع أن يُلقِيَ الأذى بالناس دون إذنٍ من الله، كما يتّضح ذلك من قصّة أيوب (رج أي ١: ١٢؛ ٢: ٦). في سفر طوبيا، يقبّد رفائيل الشيطان في برّيّة مصر، حائلاً دون إلحاقه الأذى بالناس، ويصلح ما أفسده. لقد نجح طوبيا في أن يجعل هذا الأخير يغرب ويتعد، وذلك عن طريق حرق كبِد السمكة التي أتى بها وقلبها، ممّا جعل الشيطان يهرب إلى مصر (٨: ٣) بسبب رائحة الحريق ودخانها.

٨ - عائلة يرافقها ملاك الرب

يرسل الله ملاكه إلى مختاربه وإلى شعبه ليحمل إليهم خبراً أو بشرى بخلاص، أو غير ذلك. فلقد صلّى طوبيا وصلّت ساره، فأرسل الله رفائيل ملاكه ليشفي الأول من العمى، ويحرّر الثانية من الشيطان القاتل. وكما أرسل الربُّ ملاكه أمام أليعازر عبد إبراهيم، فيسّر له المهمة الملقاة على عاتقه، ونجح في إيجاد زوجة لابن مولاه من بلاد أرام (تك ٢٤: ٢٧-٤٠)، وكما سيّر ملاكه أمام شعبه (خر ٣٣: ٢-٣)، كذلك أرسل رفائيل، فرافق طوبيا في سفره (طو ٥: ١٣)، وأنقذ ساره من الشيطان (طو ٦: ١ي). وتدخل أيضاً، فرفع إلى الربِّ صلاة طوبيا، وحمل إليه الشفاء من العلاء (طو ١٢: ١٢-١٣)؛ هذا ما كشفه عزّريا الذي رافق طوبيا في سفره عندما قال له: "أنا رفائيل الملاك، أحد السبعة الواقفين أمام الرب، والحاملين إليه صلوات القديسين (طو ١٢: ١٥).

٩ - عائلة وفق قواعد دينية وحُلقية

يتميّز واضع سفر طوبيا بمعرفة جيّدة لتوراة موسى ولحكمة أحيقار. هذا ما نتبيّنه من نصائح طوبيا لابنه طوبيا (٤: ٣-٢١؛ ١٤: ٨-١١).

فلقد قادت مخافة الربِّ طوبيا في سُبُل الحقِّ (١: ٣)، وسيّرت خطاه في طريق الحجّ إلى أورشليم (١: ٦)، وقادته باتجاه بني قومه المقهورين، فواصل دفن موتاهم، بالرغم من تحريم الملك لذلك، ممّا أدّى إلى تجريدته من أمواله، وهربته عارياً مع امرأته وابنه (١: ١٩ي). لقد اعتبّر طوبيا أنّ الموتى المحرومين من دفن لائق واجبّ تجاه نفس الميت، يجب ألا يُجرّم منها مهما كلف الأمر (٢ صم ٢: ١٠؛ ١ مل ١٤: ١١؛ أش ١٤: ١٩). كذلك إمداد أهل الميت النائحين على قبور موتاهم بالطعام شكّل في نظر طوبيا فعل تعزية توجبه الأدبيات الإنسانية والفناعات الدينية.

من ناحية ثانية، اعتنق طوبياً أُسساً دينيةً ثلاثةً في حياته، ألا وهي: الصلاة والصوم والصدقة (١٢)؛ هذا ما لقّنه لابنه بقوله له: "إن كان لك الكثير فابدل كثيراً؛ وإن كان لك القليل، فاجتهد أن تبدل القليل عن نفس طيبة" (٤ : ٨).

أما بالنسبة إلى الزواج، فإنّ مواقف طوبياً وأقواله مشبعةٌ بالسموّ وبالنظرة الحميدة إلى هذا الموضوع، خاصةً من حيث صمود الزوجين في وجه الشهوة (٣ : ١٤-١٥). في الواقع، لم تشته سارة قطّ رجلاً، فحفظت نفسها من كلّ دنس؛ وطوبياً تزوّج بلا رغبة في إشباع شهوة، بل ليكون له نسلٌ يبارك اسم الربّ (٨ : ٧).

هذا كلّهُ نتيجةُ التزام طوبياً وعائلته بشريعة الربّ، على مثال الأنبياء الأتقاء، حمّة هذه الأخيرة (٤ : ٢١-٢٢)، حتّى في البلاد الغريبة حيث يمكن للمنفق المؤمن أن يُظهر قدرة الله ومعجزاته (طو ١٣ : ٨). وفي طو ٤ : ٥-٦ يوصي طوبياً ابنه أن يذكر الربّ كلّ أيام حياته، لأنّ من يعمل الحقّ ينجح في أعماله (٤ : ٥-٦)؛ وأن يعمل الصدقة في يوم الضيق (٤ : ١-٩)، لأنّ الصدقة تنجّي من الموت والظلمة والدينونة، وتفسح المجال لرؤية وجه الله.

كذلك شكّلت الصلاة في حياة طوبياً عنصراً حياتياً أساسياً؛ فعندما ضايقته امرأته بكلامها غير الملائم، راح يصلّي ذارفاً الدموع، مفضلاً الموت على الحياة، كما صلّى من قبل موسى وطلب الموت (عد ١١ : ٥)، وكما فعل إيليا عندما شهد تنكّر بني إسرائيل للربّ، حتّى إنهم نقضوا عهده، وقتلوا أنبياءه، وقوّضوا مذابحه (١ مل ١٩ : ٤-١٠). وما يميّز صلاة طوبياً هي الثقة بالله والفرح والسلام.

خاتمة

لقد تبين لنا من خلال هذه العجالة أنّ واضع سفر طوبياً يرمي إلى التأكيد على أنّ العائلة المؤمنة قادرةٌ على أن تعيش محافظةً على وديعة الإيمان حتّى وسَطَ عالمٍ عدائيٍّ أو لا مبالي، راسماً بذلك لوحةً بهيّةً تمثّل حُليّة المؤمن الحقيقي، حتّى عندما يكون في وضع الأقلّيّة الأمتية، وتحيطُ به أكثريةٌ قاهرةٌ وظالمة. بفضل هذه العائلة "الطوبياوية" المثاليّة، يبدو سفر طوبياً وكأنّه مسيرةٌ نموٍّ روحيٍّ في حياة الأزواج في مستهلّ حياتهم الزوجيّة، وفي حياة العائلات المؤمنة بالله، الأمر الذي يجعل من هذه وتلك جذراً لسلالةٍ جديدةٍ، وذاكرةٌ لها ولكثيرين.